القضية الفلسطينية وتطوّر مفهوم «الخيار الاردني»

محمد خالد الأزهري

من النادر ان يتحدث المعنيّون بتسوية القضية الفلسطينية دون المرور بنقاط تتعلق بالمتغير الاردني. ومتابعة التاريخ السياسي للقضية تبرز الى أي مدى كان الارتباط بين التطورات السياسية في فلسطين ونظيرتها في شرق الاردن؛ كما تبرز كيف ان التحدث حول ما اصطلح على تسميته، في السنوات الاخيرة، بـ «الخيار الاردني»، هو، في واقع الامر، حديث قديم، تواكب ميلاده مع بدايات القضية ذاتها. وهذا البحث يجتهد في التنقيب عن جذور هذا الخيار، والمعاني المختلفة التي أخذها، والاطراف التي تبنّته عبر مراحل مختلفة.

أولاً: المفهوم البريطاني لـ «الخيار الاردني»

في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كانت بريطانيا أكثر الدول الاستعمارية انشغالاً بمستقبل المشرق العربي. وضمن رؤيتها، التي تحددت في اطار مصالحها الذاتية، تطلعت السياسة البريطانية الى ربط فلسطين وشرق الاردن بنفوذها. ومع ان ذلك توجه بريطاني سابق على نهاية الحكم العثماني في المنطقة، الاّ انه أصبح موثّقاً بمعاهدات مع الاقران الاستعماريين، في أثناء الحرب العالمية الاولى، وبعد انتهائها بوقت قليل. وفي ذلك الحين، لم يكن التصور البريطاني ثابتاً، في ما يتعلق بمصير شرق الاردن، في مختلف المراحل، وهو أمر لم ينطبق على الحالة الفلسطينية في غرب النهر، حيث كان مستقبل فلسطين ثابتاً، نسبياً، في المشروع البريطاني، ويدور حول ضرورة تهويدها، ومنعها من الاستقلال في اطار عربي، ما أمكن الى ذلك سبيلاً.

في المرحلة السابقة على الحرب العالمية الاولى، وفي معرض الدراسات التي قام بها فنيون بريطانيون لصالح حكومتهم، قدم لورنس اوليفانت خطة لتكوين مستعمرة يهودية صغيرة في اطار الدولة العثمانية، ويحكمها موظف تركي. واقترح ان تقع تلك المستعمرة في شرق الاردن، وان يكون المشروع تابعاً لشركة صغيرة تشرف عليها شركة الهند الشرقية. ورأى اوليفانت ان يتم شراء الاراضي المطلوبة من الحكومة العثمانية مباشرة. وحين تقدم بخطته الى رئيس الوزراء البريطاني، في العام ١٨٧٩، نالت الخطة استحسان الحكومة، بما في ذلك أمير ويلز (الملك ادوراد فيما بعد)[١].

وبانتهاء الحكم التركي فعلياً، وسقوط شرق الاردن في حوزة الحلفاء، صنّف شرق الاردن منطقة هامّة للمصالح البريطانية. ويمكن ايجاز عوامل أهميتها في: ضمان الطرق المؤدية الى الوجود البريطاني بين مصر وقناة السويس غرباً والمصالح البريطانية في الموصل وحتى الهند شرقاً؛